الحياة الطيّبة
السنة 23
العدد 41
ربيع 2019م
أبحاث ودراسات

فلسفة الوجود الإنسانيّ بين الكمال والإطلاق قراءة في فكر الإمام الخميني قدس سره

الدكتور الشيخ فادي ناصر[1]

خلاصة

إنَّ فشل البشريّة اليوم في تحقيق السلام الذاتيّ، الوصول إلى شاطئ الأمان النفسيّ والاجتماعيّ بعد هذا الدرب الطويل الذي سلكته منذ أن وطأت أقدام الإنسان الأوّل هذه الأرض وحتّى اليوم، يدعونا للتعجّب والسؤال، عن سرّ هذه الخيبة الإنسانيّة المتلاحقة التي تستمرّ فصولها من دون توقّف. فعلى الرغم من التطوّر الذي وصل إليه إنسان اليوم، والذي ظهر جليّاً في سيطرة الإنسان على الطبيعة والتحكّم في مفاصل أساسيّة منها، ما زلنا نشهد في الوقت نفسه تراجعًا مخيفًا على مستوى الطمأنينة العقليّة والقلبيّة لدى هذا الإنسان نفسه. وما استفحال داء الكآبة الذي يعتبر مرض العصر إلا شاهدًا على هذا الواقع المرير والمتناقض الذي يعيشه إنسان الألفيّة الثانية، على الرغم من الرخاء المادّيّ الذي وصل إليه. وهذا ما يدعونا إلى إعادة النظر في المنظومة الفكريّة والفلسفيّة الحاكمة اليوم على عقول البشر، لمراجعة فصولها واكتشاف مواضع الخلل فيها؛ لأنّه لا يمكن أنْ يكتب الرقيّ الإنسانيّ

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ وأستاذ في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالميّة وجامعة المعارف، من لبنان.

بأيّ شكل من الإشكال ما لم تترافق الثورة العلوم الطبيعيّة مع الثورة العلوم الإنسانيّة؛ لأنّهما صنوان لا ينفصل أحدهما عن الآخر. وتأتي هذه الدراسة لاستقراء رؤية عَلَم من أعلام الفكر الدينيّ والإنسانيّ الحديث؛ وبيان توافق رؤيته مع مكنونات النوع الإنسانيّ بكلّ أطيافه وألوانه، من دون أدنى تمييز أو تفريق.

مصطلحات مفتاحية

الإنسان، الفطرة، السعادة، الكمال المطلق، العبودية، الشريعة.

مقدّمة

يعتبر البحث حول حقيقة الإنسان والهدف من وجوده، من أقدم الأبحاث التي شغلت الفكر الإنسانيّ على الصعيدين الدينيّ والفلسفيّ. من يكون هذا الإنسان؟ وما هي حقيقته؟ من أين جاء؟ ولماذا وجد؟ وإلى ما هو صائر إليه؟ وغيرها من الأسئلة المصيريّة المرتبطة بفلسفة وجود الإنسان في هذا العالم.

فخرجت النظريّات والأبحاث والكتب المستفيضة محاولة كشف اللّثام عن هذه الأسئلة التي تتميّز بالسهولة لناحية الطرح، والعموميّة لناحية أنّ كلّ أبناء البشر يطرحون على أنفسهم الأسئلة عينها في مختلف الأزمنة البشريّة وعصورها. ولكن في الوقت عينه يلاحظ الباحث الصعوبة البالغة والتعثّر الهائل في الإحاطة المعرفيّة بهذه الأسئلة والإجابة عنها على نحو شامل وعميق، وعلى شكل منظومة متكاملة المبادئ والأصول والأهداف، والنتائج العمليّة والواقعيّة. وهذا ما يفسّر لنا هذا التنوّع الكبير والهائل في النظرة إلى الإنسان بين الأديان والمدارس الفكريّة المختلفة؛ وخصوصاً الفلسفيّة منها. ونحن في هذه الدراسة سوف نتناول رؤية عَلَم من أعلام الفكر الإنسانيّ والإسلاميّ المعاصر حول حقيقة الإنسان وفلسفة وجوده

في هذا العالم، من أجل الوقوف على رؤيته الخاصّة، لما لنظريّاته وأعماله من تأثير كبير على المسار التاريخيّ الإنسانيّ عموماً والإسلاميّ خصوصاً، في نهايات القرن الماضي. ونعني به الفقيه المجدّد، الإمام روح الله الخمينيّ الموسويّ قدس سره، الذي تركت أفكاره ونظريّاته بصمات واضحة وجليّة على الفكر الدينيّ والإنسانيّ، على الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ معاً. وإنّنا وعلى الرغم من الأبحاث والدراسات والمؤتمرات التي عقدت من أجل فهم فكر هذا الفقه الفذّ، فإنّنا نرى أنّها ما زالت ناقصة وخجولة، ولم تعطِ هذا المفكّر حقّه من الدراسة والتمحيص؛ من أجل سبر أغوار فكره العميق.

أولاً: نقطة البداية لمعرفة الغاية:

يُعتبر البحث عن الغاية التي خلق الإنسان لأجلها من أكثر الأبحاث والمعارف أهمّيّةً وأعظمها تأثيرًا في سلوك الإنسان، ونظرته إلى العالم. وتنبع أهمّيّته من جوانب عديدة، لعلّ أحدها أنّه سؤالٌ يبحث عن جوابه جميع الناس أينما ثقفوا. ويندر أنْ نجد إنسانًا يأمل بالحياة، ولم يجعل لنفسه هدفًا يسعى لبلوغه في جميع حركاته ومشاريعه. وغالبًا ما تكون الأهداف التي يصبو إليها الناس دافعًا أساسًا لجميع أنشطتهم وأفعالهم. ولو فقد المخلوق روح الهدف والغائيّة، لانعدم فيه الأمل بالبقاء، وخبت بهجة الحياة في عينيه، ولكان الموت عنده أفضل من العيش في هذه الدنيا.

إنّ جميع البشر لا يمكن أن يعيشوا بدون غايةٍ ما، مهما كانت وضيعةً. ونشوء الغايات المختلفة يرجع بالدرجة الأولى إلى تلك القيم السائدة التي يتبنّاها المجتمع، والتي قد تكون في مجتمعٍ ما عبارةً عن غلبة قيم الانحلال الأخلاقيّ والثقافة المادّيّة وتمجيد اللذّة، وفي مجتمعٍ آخر قيم الحياة الآخرة وثقافة الشهادة. إنّ جوهر القضية يكمن في معرفة الغاية التي خلق الله الإنسان لأجل الوصول إليها؛ لأنّها سرّ وجوده على الأرض.

وبما أنّ الغاية التي نتحدّث عنها هي غاية النفس الإنسانيّة، فإذا أردنا أن نتعرّف إلى هذه الغاية علينا أن ننطلق من معرفة حقيقة هذه النفس؛ وفاقًا للحديث المشهور: «**من عرف نفسه فقد عرف ربـه**»[1]. فالسير والتأمل العقليّ في حقيقة النفس الإنسانيّة وتركيبتها يهدينا إلى معرفة الغاية التي خلق الله الإنسان لأجلها. فالله سبحانه قد كتب في أعماق كلّ مخلوقٍ كلمات الحقيقة، وليس على الإنسان إلَّا أن يفتح كتاب خلقته ويطالع صفحاته؛ لكي يصل إلى مطلوبه.

وكتاب الخلقة هذا -بحسب رؤية الإمام الخمينيقدس سره- ليس سوى «**الفطرة الإلهيّة**» التي هي عبارة عن لمسات يد الخالق الحاكية عن أسرار الوجود الإنسانيّ، «بل إنّ جميع المبادئ الحقّة هي من الأمور التي فطر الله -تعالى- الإنسان عليها»[2].

فالهدف النهائيّ للإنسان لا يمكن أن يكون مكتوبًا إلَّا على الصفحات الصافية من كتاب النفس، هذه الصفحات التي كتبها الربّ الحكيم الذي ليس لحكمته حدٌّ محدود ولا يشوب ذاته أيّ عجزٍ أو جهل. وهذه الصفحات الصافية هي الفطرة الإنسانيّة التي أودعها الخالق -عزّ وجلّ- في جميع الناس، ولا تبديل لخلق الله. ومثلما أنّ من يودّ مطالعة الكتب الورقية يحتاج إلى عينٍ باصرةٍ، فإنّ من أراد قراءة كتاب الخلقة الأبيض يحتاج إلى عقلٍ سليم. وهو أداة المعرفة الأولى، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**يا علي، إذا تقرّب العباد إلى خالقهم بالبرّ فتقرّب إليه بالعقل تسبقهم**»[3]. فالتفكّر العقليّ بحقيقة النّفس وتوجّهاتها، وبالفطرة الإنسانيّة من المفترض أن يوصلنا إلى معرفة الهدف والغاية من وجودنا في هذا العالم.

(1) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، ط2، بيروت، مؤسسة الوفاء؛ دار إحياء التراث العربي، ط2، 1983م، باب استعمال العلم والإخلاص في طلبه، ج2، ح 22، ص32.

(2) الخميني، روح الله: الأربعون حديثًا، تعريب: محمد الغروي، ط4، بيروت، دار التعارف، 1992م، ص210.

(3) الطبرسي، علي: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، تحقيق مهدي هوشمند، ط1، نشر وطباعة دار الحديث، 1418هـ الفصل الثاني في صفة العقل، ح 1476، ص 440.

ثانيًا: الأحكام البديهية للفطرة الإنسانيّة:

الفطرة هي أصل الخلقة والهيئة التي خلق عليها الإنسان، والصبغة التي صبغه الله بها منذ أن أوجده في هذا العالم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾،[1] ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾[2]. ويعرّفها الإمام الخميني قدس سره فيقول: " إعلم أنّ المقصود من فطرة الله التي فطر الناس عليها هو الحال والكيفيّة التي خلق الناس؛ وهم متّصفون بها، والتي تعدّ من لوازم وجودهم، ولذلك تخمّرت طينتهم بها في أصل الخلق»[3]. وللفطرة الإنسانيّة ميّزاتٌ عديدةٌ ومتنوّعة يمكن أن نلخّصها بالتالي:

1. الفطرة مشتركة بين جميع الناس على مرّ العصور واختلاف الأمكنة، وهي لا تتأثّر ولا تتبدّل على الرغم من كلّ الاختلافات والتناقضات في العادات، والتقاليد، والمناخات، والجغرافيا، والأنظمة السياسيّة والفكريّة، والتيارات الثقافيّة، والمذاهب الدينيّة.
2. أنّها ليست أموراً مكتسبة، بل هي ميولٌ ورغبات مغروسة في أعماق الإنسان، وموجودةٌ معه منذ أن وُجِدَ في هذا العالم.
3. أنّ الفطرة لا تعرف حدًّا أبدًا، فرغبات الفطرة الإنسانيّة لا تقف عند حدّ بل تطلب دائمًا ما هو أفضل وأكمل، وهي في حالة طلبٍ دائم، وميولها لا تعرف الشبع أبدًا.

ولكن ما يثير الدهشة كما يقول الإمام الخميني قدس سره، أنّه على الرغم من عدم وجود أيّ خلاف بشأن الأمور الفطريّة، فإنّ البشر غافلون عن أنّهم متّفقون حول هذه الحقيقة التكوينيّة، ويظنّون أنّهم مختلفون أشدّ الاختلاف، وهذا ما تشير إليه الجملة الأخير من الآية الشريفة: ﴿لكِنَّ أَكْثَرَ

(1) سورة الروم، الآية 30.
(2) سورة البقرة، الآية: 138.
(3) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص209.

النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾[1]، ليصل الإمام في ختام بحثه إلى بداهة الأمور الفطريّة: "فيتضح ممّا سبق ذكره أنّ أحكام الفطرة أكثر بداهة من كلّ أمر بديهيّ، إذ لا يوجد في جميع الأحكام العقليّة حكم مثلها في البداهة والوضوح، حيث لم يختلف فيه الناس ولنْ يختلفوا. وعلى هذا الأساس تكون الفطرة من أوضح الضروريّات وأبده البديهيّات، كما أنّ لوازمها -أيضًا- يجب أنْ تكون من أوضح الضروريّات وأجلى البديهيّات"[2].

ثالثاً: الفطرة الإنسانية وحبّ الكمال:

المرتكز الذي يبني عليه الإمام الخمينيقدس سره نظريّته بشأن فلسفة وجود الإنسان والغاية من خلقه هي "الفطرة"، ويعتبر هذا الأمر من الألطاف الإلهيّة والحجج الربّانيّة التي سوف يحتجّ بها الله -تعالى- يوم القيامة على عباده، ولو لم تصلهم رسله؛ لأنّ للفطرة الإنسانيّة بحسب رؤية الإمام قدرة تكوينيّة على هداية الإنسان إلى معنى وجوده، والهدف الواقعيّ منه. وهذا يتطابق مع الحديث المروي عن الإمام الكاظم عليه السلام الذي يقول فيه: " إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة"[3]. فهذه الحجّة الباطنيّة إذا أحسن الإنسان الإنصات إلى صوتها، وتعرّف بحقّ على مبتغاها؛ لاهتدى قطعًا إلى الهدف السامي لوجوده، وهذا ما يؤكّده الإمام الخمينيقدس سره الذي يرى أن التفكّر العقليّ، في أصل الخلقة؛ أي في الفطرة الإنسانيّة من المفترض أن يقود الإنسان حكماً إلى الغاية الحقيقية؛ لأنّها بمثابة رسالة الله إلى كلّ إنسان والنداء الإلهيّ الذي ينبعث من أعماقه وجوده التكوينيّ.

(1) سورة الروم، الآية 30.
(2) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص211.
(3) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط5، طهران، دار الكتب الإسلامية؛ مطبعة الحيدري، 1363هـ.ش، كتاب العقل والجهل، ج 1، ح 12، ص 16.

وهنا تأتي قاعدة اللطف التي تقول إنّ الله -تعالى- من المستحيل أنْ يجعل في الإنسان ميولًا وتوجّهات نحو أشياء لا ينبغي أن يسعى نحوها، إنّ مثل هذا الظنّ تَوَهُّم فاسد، واتِّهامٌ للخالق سبحانه؛ لأنّ الحكيم المتعال لا يترك أيّ عمل فيه حكمة أو من ورائه حكمة، وحكمته المطلقة تعني لزوم صدور جميع الأفعال الحكيمة عنه، والحكمة تعني أنّ فعل الحكيم ينبغي أن يتَّصف بالغائيّة والهدفيّة، وأنْ يكون الهدف من فعله جليلًا وساميًا. إذن وجود الميول الفطريّة فينا نحن البشر دليلٌ قويّ على وجوب تلبيتها، فإذا لحقنا هذه الميول في توجّهاتها ورغباتها سننتهي إلى الغاية التي خلقنا الله من أجلها.

إنّ التفكّر والتأمّل في أنفسنا سيقودنا إلى اكتشاف مجموعة من الميول النفسيّة والفطريّة التي تتحرّك وتتفاعل بشكلٍ مدهش، حتّى أنّ كلّ حركاتنا ونشاطاتنا تنطلق من هذه الميول، بل إنّ هذا الجسم المادّيّ نفسه يأتمر بإمرة هذه الميول الفطريّة، وهو منقادٌ لها أيضًا.

ويلخّص الإمام قدس سره في البداية هذه التوجّهات الفطريّة، بما اصطلح عليه بالـ «الفطرة التي تعشق الكمال». فالسمة الأساس التي تتميّز بها الفطرة الإنسانيّة عند جميع البشر هي عشق الكمال، وبتبعه التنفّر من النقص. وهذا الحب والتنفّر لا يخلو منه أيّ إنسان في هذا العالم؛ سواء أكان على وعي ودراية بذلك أم لا؛ كما ذكرنا آنفاً؛ لأنّ البشر مختلفون في درجة وعيهم بمكنونات نفوسهم، ولكنّ هذا الاختلاف لا يلغي الأصل الوجوديّ لهذه الحقائق. بل يعتبر الإمام قدس سره أنّه لا بدّ من التنبّه لهذه المقدّمة الأوّليّة والضرورويّة والتي يجب أن يقف عندها ويتأمّل فيها الإنسان مليًّا؛ لكي يهتدي إلى فلسفة وجوده في هذا العالم، حيث يقول: «من الأمور الفطريّة التي جبلت عليها سلسلة بني البشر بأكملها، بحيث إنك لنْ تجد فردًا واحدًا في كلّ المجموعة البشريّة يخالفها، ولنْ تستطيع العادات والأخلاق والمذاهب والمسالك وغيرها أن تبدّلها ولا أنْ تحدث فيها

خللًا، إنّها الفطرة التي تعشق الكمال»[1]. وهذا التوجّه نحو أصل الكمال، بغضّ النظر عن نوعه ومصداقه، هو سرّ حركات الإنسان وسكناته في هذا العالم؛ بحسب رؤية الإمام الخميني قدس سره. فهو بمثابة القوة الخفيّة الدافعة له للقيام بالأعمال التي يرى فيها كماله وسعادته: «فأنت إنْ تجوّلت في جميع الأدوار التي مرّ بها الإنسان، واستنطقت كلّ فرد من الأفراد، وكلّ طائفة من الطوائف، وكلّ ملّة من الملل، تجد هذا العشق والحبّ قد جُبِلَ في طينته، فتجد قلبه متوجّهًا نحو الكمال. بل إنّ ما يحدّد الإنسان ويدفعه في سكناته وتحرّكاته، وكلّ العناء والجهود المضنية التي يبذلها كلّ فرد في مجال عمله وتخصّصه، إنّما هو نابع من حبّ الكمال، على الرغم من وجود منتهى الخلاف بين الناس فيما يرونه من الكمال، وبأيّ شيء يتحقّق الكمال، ويشاهد الحبيب والمعشوق»[2].

رابعاً: الاختلاف في مصاديق الكمال لا يلغي فطريّتها:

إنّ الوحدة التي يشترك فيها البشر لناحية عشقهم وحبّهم للكمال، وميلهم إليه لا يعني أنّهم متّفقون على مصداق هذا الكمال، أو أنّهم منسجمون في ما بينهم على أصل تحديده. بل هم -كما يقول الإمام قدس سره- مختلفون أشدّ الاختلاف في تعيين مصداقه. والسرّ في ذلك يكمن في أنّ كلّ واحد منهم يرى كماله الذي ينشده في شيء، مختلف عمّا يراه غيره، وإنْ كانوا جميعًا متّفقون؛ كما أسلفنا على أصل حبّ الكمال، ولكنْ كلٌّ يرى كماله في أمر مغاير لما يراه الآخر. فمنهم من يرى كماله في المال، ومنهم من يرى كمال في السلطة، ومنهم من يرى كماله في العلم، ومنهم من يرى كماله في الطعام، وغيرها من المصاديق...

لكنّ الإمام قدس سره يعتبر أنّ هذه التوجّهات الكماليّة ليست توجّهات

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص 212.
(2) م.ن، ص.ن.

واقعية وصحيحة، بل هي أقرب ما تكون إلى الوهم، لأنها ليست المصداق الحقيقي الذي تصبو إليه نفوس البشر. بل يوجد في البين خلط ومغالطة ونوع من الخداع الذي يمارسه الإنسان مع نفسه من دون أن يدري. وهنا بالتحديث يأتي دور رسل الحق تعالى لكي يوجّهوا الفطرة الإنسانيّة نحو كمالها الحقيقي كما قال الإمام علي عليه السلام في فلسفة بعثة الإنبياء والرسل حينا قال: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَ يُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**»[1].

إذن ليس هذا التنوعّ قادحًا في صحّة أصل هذه التوجّهات الفطريّة نحو الكمال، بل إنّ وراء هذا التنوعّ سبب، هو سوء اختيار الإنسان، من خلال قبوله بالعرض الأدنى من الكمال على حساب الدرجة الأعلى والمرتبة الأسنى منه. والسبب وراء هذا الاختيار السيّئ مردّه إلى أمور عديدة يختصرها الإمام قدس سره بسبب أساس وجوهري؛ هو: «حب النفس»، و «الأنا»، أو ما يصطلح عليه الإمام قدس سره باتّباع الهوى؛ كما يقول: «إنّ ميزان البعد عن الحق هو اتّباع هوى النفس»[2].

وعليه، في المحصّلة نصل إلى نتيجة؛ مفادها: «كلٌّ يجد كماله ومعشوقه في شيء؛ ظنًّا أنّ ذلك هو الكمال وكعبة الآمال، فيتخيّله في أمر معيّن، فيتوجّه إليه، ويتفانى في سبيله تفاني العاشق. إنّ أهل الدنيا وزخارفها يحسبون الكمال في الثروة، ويجدون معشوقهم فيها، فيبذلون من كلّ وجودهم الجهد والخدمة الخالصة في سبيل تحصيلها، فكلّ شخص مهما يكنْ نوع عمله، ومهما يكنْ موضع حبّه وعشّقه، فإنّه لاعتقاده بأنّ ذلك هو الكمال يتوجّه نحوه. وهكذا حال أهل العلوم والصنايع، كلّ يرى الكمال في شيء ويعتقد أنّه معشوقه، بينما يرى أهل الآخرة والذكر والفكر غير ذلك.

(1) الإمام علي: نهج البلاغة، تحقيق: صبحي صالح، ص 43.
(2) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص 198.

وعليه، فجميعهم يسعون نحو الكمال، فإذا تصوّروه في شيء موجود أو موهوم تعلّقوا به وعشقوه. ولكنْ لا بدّ أنْ نعرف أنّه على الرغم من هذا الذي قيل فإنّ حبّ هؤلاء وعشقهم ليس في الحقيقة لهذا الذي ظنّوه بأنّه معشوقهم، وإنّ ما توهّموه وتخيّلوه ويبحثون عنه ليس هو كعبة آمالهم»[1]. وهنا تحديدًا يبدأ مفترق الطرق في الرؤية الكونيّة والوجوديّة لفلسفة وجود الإنسان بين الإمام الخميني قدس سره وغيره من الفلاسفة، لكون الإمام قدس سره يذهب بعيداً ليشخّص بالدقّة ماهيّة هذا الكمال الحقيقيّ الذي يبحث عنه الإنسان ويصبو إليه، ودائمًا من خلال الرجوع إلى الفطرة الإنسانيّة التي يتشارك فيها جميع البشر. وهنا تأخذ رؤية الإمام قدس سره وتشخيصه الثاقب بعدًا إنسانيًّا عالميًا وليس إسلاميًّا فقط، لكون المصداق الواقعيّ والحقيقيّ الذي يبحث عنه البشر جميعًا ودائمًا من وجهة نظر الإمام قدس سره؛ إنّما هو مطلوب النوع الإنسانيّ، وليس الإسلاميّ. وهذا ما يعطي لهذه الرؤية بعدًا عالميًّا يجمع في طيّاته كلّ البشر على اختلاف أديانهم ومشاربهم ومذاهبهم، لتكون رؤية الإمام موحّدة للبشر وليست مفرّقة لهم، وهذا أعظم ما في هذه النظريّة؛ لكون الجميع يبحث عن مصداق واحد لهذه التوجّهات الفطريّة العاشقة للكمال.

خامساً: نظريّة الإطلاق والمصداق الحقيقيّ للكمال الفطريّ:

إن التفكّر العقليّ في الفطرة الإنسانيّة من المتوقّع أنْ يقودنا إلى معرفة المصداق الواقعيّ للكمال الذي تبحث عنه الفطرة الإنسانيّة؛ لأنّها، كما ذكرنا، هي رسالة الله إلى كلّ إنسان والنداء الإلهيّ الذي ينبعث من أعماقه. ويرى الإمام قدس سره أنّ تتبّع وجهة هذه الميول بواسطة العقل سينتهي بنا حتمًا إلى معرفة الغاية الواقعيّة لفلسفة وجودنا؛ لأنّ الله -تعالى- لا يعقل أنْ يجعل فينا ميولًا وتوجّهات نحو أشياء على نحو عبثيّ ومن دون أيّ فائدة أو هدف.

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص231.

إنّ المحور الأساس الذي تدور حوله فلسفة الإمام الخميني قدس سره ورؤيته في تحديد المصداق الواقعيّ للكمال الذي تنشده الفطرة الإنسانيّة وتبحث عنه؛ هو «الإطلاق». فالإمام يرى أنّه ما زال في الفطرة الإنسانيّة أمرًا مخفيًّا لم يكتشف، ولم يسلّط عليه الضوء بما فيه الكفاية على الرغم من أهمّيّته الفائقة، وهذا الأمر المخفي، هو التوجّه والميل الإطلاقيّ النابع من الفطرة نفسها. فعند التدقيق في خاصّيّة النوازع والميول الفطريّة والبحث في مكنوناتها على نحو أعمق، يمكن أن يكتشف الإنسان أمرًا في غاية الأهمّيّة، ويمكن أنْ يغيّر المنظومة الإنسانيّة المعرفيّة برمّتها. وهو ما يصطلح عليه الإمام قدس سره بالـ «الكمال المطلق».

صحيح أنّ الفطرة الإنسانيّة توجّه الإنسان نحو الأمور التي ترى فيها كمالًا؛ كطلب العلم، والقدرة، والجمال، والراحة، والسعادة وغيرها من المفاهيم التي تشكّل الدوافع الأساسة لكلّ فعلٍ؛ مهما كان بسيطاً، لكون الإنسان يريد دومًا أن يتعرّف ويكتشف المجهول أينما وُجِد. ويتمنّى لو أنّه يقدر على فعل كلّ ما يريد. وهو يسعى دائمًا للارتباط بكلّ ما يشبع حاجته العاطفيّة. هذه هي رغبات كلّ واحدٍ منّا، مهما كان، وفي أيّ زمان أو مكان، وسواء أبرزها إلى العلن وعبَّر عنها بشكلٍ واضح ومباشر، أم أنّه أخفاها وألبسها ألف حجاب. ولا ننسى أنّ الإنسان مخلوقٌ مختار، ووجود هذه الميول فيه لا يعني أنّه سيسعى دومًا وبالشكل الصحيح لتلبيتها. فإنّ هذه الميول قد تضعف شيئًا فشيئًا أمام ميولٍ أخرى غير فطريّة. وقد تختفي وراء القيم المنحطّة السائدة في المجتمع؛ بحسب ما يختاره ذاك الشخص بإرادته. وإنْ كان القضاء على الميول الفطريّة بالكامل أمرًا مستحيلًا. والأصح أنْ يقال: إنّ الميّول الفطريّة تفقد وجهتها الصحيحة وتتلوّن بالقيم السائدة في مثل هذه الحالة، لا أنّها تزول أو تختفي.

ومن جانبٍ آخر -أيضًا- فإنّ العقل أثناء بحثه وتفكّره سوف يكتشف أمرًا في غاية الأهمّيّة؛ وهو أنّ لهذه الميول خاصّيّة لافتة، بالإضافة إلى

وجودها عند الجميع، وهذه الخاصيّة تتعلّق بعدم محدوديّتها. فميل الإنسان للمعرفة والعلم ليس له حدّ، بل كلّما وصل الإنسان إلى مرتبةٍ من المعرفة تراه يطلب مرتبةً أخرى أعلى وأرقى. والكلام نفسه بالنسبة إلى سعي الإنسان لامتلاك القدرة والسيطرة، فإنّه لا يكتفي بما تصل إليه يداه بل هو في سعيٍ دائم نحو قدرة أعلى وأكمل. وحبّ الإنسان وعشقه هو بدوره لا يعرف الشبعً. فالعاطفة الجيّاشة التي تنبع من القلب الواله تتوجّه دائمًا نحو المحبوب الذي ترى فيه الكمال والسعادة، وإذا ما وجد هذا القلب محبوبًا أكمل فإنّه سينتقل إليه. فالقلب الإنسانيّ يحبّ ويعشق الكمال ويطلب على الدوام ما هو أكمل وأفضل، وسيبقى هذا القلب يتنقل من كاملٍ إلى ما هو أكمل منه، ومن جميلٍ إلى ما هو أجمل منه، وهكذا... وهذه هي حقيقة وسرّ هذه الميول الفطريّة التي أودعها الله -تعالى- فينا، فهي ميولٌ ورغباتٌ مطلقة لا تقف عند حدّ، ولا تعرف الشبع أبداً. والإنسان يجد في نفسه الرغبة بالمزيد دائمًا على الرغم من حصوله على الكثير.

وبالتالي يرى الإمام قدس سره أنّ حقيقة التوجّهات الفطريّة هي توجّه نحو المطلق لا المحدود، وهذا أعظم ما في الفطرة الإنسانيّة، وهو ما يفسّر؛ بحسب رؤية الإمام قدس سره، عدم قنوع الإنسان ورضاه أو اكتفاؤه بأيّ كمال صبا إليه ووصل إليه بعد طول عناء، إذ ما إنْ يصل إليه حتى يدعه جانباً، ويسعى نحو كمال آخر أرفع شأناً وأعلى منزلة. والمشكلة الرئيسة تكمن في أنّ البشر يمارسون هذه التطبيقات السلوكيّة للفطرة الإنسانيّة عن غير وعي، ومن دون التفات، لذا يبقون في حالة بحث وتنقّل من كمال إلى ما هو أكمل. وهو ما يفسِّر حالة تطوّر الإنسان الدائم منذ أنْ وُجِدَ في هذا العالم إلى يومنا هذا. يقول الإمام قدس سره: «نور الفطرة قد هدانا إلى أنْ نعرف أنّ قلوب جميع أبناء البشر من أهالي أقصى المعمورة وسكان البوادي، والغابات إلى شعوب الدول المتحضّرة في العالم، ابتداءً

بالطبيعيّين والماديّين، وانتهاءً بأهل الملل والنحل، تتوجّه قلوبهم بالفطرة إلى الكمال الذي لا نقص فيه، فيعشقون الكمال الذي لا عيب فيه ولا كمال بعده، والعلم الذي لا جهل فيه، والقدرة التي لا تعجز عن شيء، والحياة التي لا موت فيها؛ أي أنّ الكمال المطلق هو معشوق الجميع. إن جميع الكائنات والعائلة البشريّة، يقولون بلسان فصيح واحد وبقلب واحد: إنّنا نعشق الكمال المطلق، إنّنا نحب الجمال والجلال المطلق، إنّنا نطلب القدرة المطلقة، والعلم المطلق»[1].

سادساً: الله هو المصداق الوحيد للكمال الذي تصبو إليه الفطرة:

بعد تحديد الصفة الحقيقة للكمال الذي تصبو إليه الفطرة الإنسانيّة، يسأل الإمام الخميني قدس سره سؤالًا إضافيًّا، وهو بمثابة السؤال الحاسم الذي من المفترض أنْ يكمل هذه الأحجية الإنسانيّة، وتكمل منظومتها وفلسفتها. والسؤال هو، مرّة أخرى، عن المصداق الواقعيّ والحقيقيّ لهذا الكمال الإطلاقيّ. فإذا كانت الفطرة تطلب الكمال على نحو الإطلاق فهل هذا الكمال موجود فعلًا؟ يحسم الإمام قدس سره بحسب قاعدة العدل واللّطف أنّه من المستحيل أنْ تكون هناك توجّهات باطنيّة في الإنسان دون أنْ يكون لها مصداق حقيقيّ وواقعيّ. فكما أنّ الإحساس بالجوع دليل على وجود الطعام، حتّى إذا قال لك أحدهم وأنت جائع إنّه لا وجود لشيء اسمه طعام في هذه الدنيا، لرميته بالمسّ والجنون حتمًا. وكما أنّ إحساس الإنسان بالعطش دليل على وجود الماء، وشعور الإنسان بالجوع دليل على وجود الطعام؛ فإنّ ميل الإنسان الباطنيّ نحو الكمال المطلق دليل على وجود هذا الكمال أيضًا. «إذن يستوجب عشقك الحقيقيّ معشوقًا حقيقيًّا، ولا يمكن أن يكون شيئًا متوهّمًا متخَيلًّا، إذ أنّ كلّ موهوم ناقص، والفطرة إنّما تتوجّه إلى الكمال. فالعاشق الحقيقيّ والعشق الحقيقيّ لا يكون من

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص214.

دون معشوق... فلازم عشق الكمال المطلق، وجود الكمال المطلق»[1].

وبما أنّ المطلق لا يمكن أن يتثنّى ويتكّرر بحسب القاعدة الفلسفيّة، فهذا الكمال المطلق لا بدّ أنْ يكون واحدًا؛ وإلا لما عاد مطلقًا. وبحسب الرؤية الدينيّة التوحيديّة، هذا الكمال المطلق الواحد مصداقه الأوحد؛ هو الله تعالى، الجامع لكلّ كمال، وجمال، وقدرة، وعلم، وحياة؛ على نحو الإطلاق؛ كما يقول الإمام الخميني قدس سره في وصيّته لابنه السيّد أحمد:

«اعلم أنّ في الإنسان ـ إنْ لم نقل في كلّ موجود ـ حبًا فطريًّا للكمال المطلق وللوصول إلى الكمال المطلق. وهذا الحبّ ممّا يستحيل أنْ يفارق الإنسان كليًّا. كما أنّ الكمال المطلق يستحيل أن يتكرّر أو يتثنّى. فالكمال المطلق هو الحقّ جلّ وعلا. والجميع يبحثون عنه، وإليه تهفو قلوبهم ولا يعلمون. فهم محجوبون بحجب الظلام والنور. لهذا فهم يتوهّمون أنّهم يطلبون شيئًا آخر غيره. ولذا تراهم لا يقنعون بتحقيق أيّة مرتبة من الكمال، ولا بالحصول على أيّ جمال أو قدرة أو مكانة، فهم يشعرون أنّهم لا يجدون في كلّ ذلك ضالّتهم المنشودة. فالمقتدرون ومن يمتلك القدرات الكبرى هم في سعيٍ دائم للحصول على القدرة الأعلى؛ مهما بلغوا من القدرة. وطلاب العلم يطلبون الدرجة الأعلى من العلم مهما بلغوا منه، وهم يشعرون دومًا أنّهم لم يجدوا ضالّتهم، وفي الحقيقة هم غافلون عنها. ولو أُعطي الساعون إلى القدرة والسلطة التصرّف في كلّ العالم المادّيّ، من الأرضين، والمنظومات الشمسيّة، والمجرّات، بل وكلّ ما فوقها، ثّم قيل لهم: إنّ هناك قدرة فوق القدرة التي تملكونها، أو أنّ هناك عالمًا أو عوالم أخرى فوق هذا العالم، فهل تريدون الوصول إليها؟ فإنّهم من المستحيل أن لا يتمنّوا ذلك. بل إنّه من المحتّم أن يقولوا بلسان الفطرة: ليتنا بلغنا ذلك أيضًا! وهكذا طالب العلم، فهو إنْ ظنّ أنّ هناك مرتبة أخرى - غير ما بلغه - فإنّ فطرته الباحثة عن المطلق ستقول: يا ليت

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص215.

لي هذه القدرة أو يا ليت لي سعة من العلم تشمل تلك المرتبة أيضًا!»[1].

فإذا كان الله -تعالى- خلقنا طالبين وعاشقين للكمال الذي لا حدّ له، فهل يُعقل أنْ يحرمنا منه أو يمنعنا عنه؟! إنّ هذا المنع يناقض صفات الخالق الرحيم. وعليه، فإنّ وجود هذه الرغبات والميول نحو الكمال الذي لا حدّ له، لهو دليلٌ واضح على أنّ الكمال اللامتناهي هو الغاية التي ينبغي أنْ نسعى إليها، وقد خلقنا الله -تعالى- لذلك. ففي أعماق كلّ إنسان عشقٌ فطريّ للكمال الذي لا حدّ له، أودعه الله فينا؛ لكي يكون لنا هاديًا كلّما ظننّا أنّنا بلغنا مقصدنا. إنّ هذا الشوق إذا سيطر على الإنسان لن يرضى معه بجميع لذّات الدنيا وكمالاتها مهما بلغت! لأنّها محدودة، وهو طالبٌ للكمال اللامحدود، طالب لله -عزّ وجلّ-: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[2].

سابعاً: الهدف الأسمى للتوجّهات الفطرية الإطلاقية:

لا يوجد كمالٌ للإنسان أجلّ وأرفع من لقاء الله سبحانه وتعالى، وهو من أسمى مقامات الإنسانيّة الشامخة. ولا سعادة أكبر للمؤمن من التقرّب إلى الله -تعالى- صاحب الكمال المحض، والقدرة اللامحدودة، والعلم المطلق، ولا راحة أعلى من اليقين بأنّ الإنسان لا محالة راجعٌ إلى ربٍّ ودودٍ رحيم. وهناك من يشكّك بأمر اللقاء وتحقّقه، ومدى ارتباطه بفلسفة وجود الإنسان، ولكنّ الإمام الخميني قدس سره يرفض هذا التشكيك، ولا يقبل به، ويعتبره نقصًا وحرمانًا، حيث يقول: « اعلم بأنّه قد ذهب بعض العلماء والمفسّرين إلى سدّ باب السبيل إلى (لقاء الله) نهائيًا، والجحود للمشاهدات العينيّة والتجلّيات الذاتيّة والأسمائيّة، زاعمين بذلك أنّهم ينزّهون الذات المقدّس، ومفسِّرين جميع آيات لقاء الله وأحاديثها، بلقاء يوم الآخرة، ولقاء الجزاء والثواب والعقاب. وهذا التوجيه ليس ببعيد كثيرًا،

(1) الخميني، روح الله: وصايا عرفانية، ط1، مركز بقية الله الأعظم، 1998م، ص20.
(2) سورة النجم، الآية 42.

بالنسبة إلى مطلق اللقاء، واتّجاه بعض الآيات والروايات، ولكنّه بالنسبة إلى بعض الأدعية المعتبرة والأحاديث المأثورة في الكتب المعتبرة، والأحاديث المشهورة التي ارتكز عليها علماؤنا العظام، موهون وبعيد جدًّا»[1].

وقد بشّر -عزّ وجلّ- المؤمنين بلقائه، فقال: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، ووعد الذين يرجون لقاءه بأنّ لهم ما يأملون: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3]، ووصف -تعالى- المكذّبين بلقائه بأنّهم خاسرون وغير مهتدين: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[4]، وأنّ الكافرين بلقائه هم في الحقيقة يائسون من رحمة الله، ولهم عذابٌ أليم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5].

وأنّه -تعالى- سوف يكلهم إلى أنفسهم، ويذرهم في عماهم: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6].

أمّا أهل الإيمان والخشوع فإنّهم على يقينٍ بلقاء ربّهم، وأنّهم إليه راجعون: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[7]. بل وإنّ قلوبهم وجلةٌ وفرحةٌ برجوعهم إليه سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[8]، لأنّهم على يقينٍ أنّ الله -تعالى- لم يخلقهم عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[9]، بل يعلمون علم اليقين أنّه اصطنعهم لنفسه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[10].

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص504.
(2) سورة البقرة، الآية 223.
(3) سورة العنكبوت، الآية 5.
(4) سورة يونس، الآية 45.
(5) سورة العنكبوت، الآية 23.
(6) سورة يونس، الآية 11.
(7) سورة البقرة، الآيتان 45 - 46.
(8) سورة المؤمنون، الآية 60.
(9) سورة المؤمنون، الآية 115.
(10) سورة طه، الآية 41.

لذا تكون نفوس المؤمنين مطمئنةً بالرجوع إلى ربِّها: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[1]، راضيةً بالدخول في عباده الصالحين والوفود إلى جنّة لقائه: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2].

وليس المقصود بلقاء الحق -تعالى- اللقاء الحسّي ورؤيته -تعالى- بالبصر المادّيّ، لأنّ الله -تعالى- ليس بجسم، ولا يحدّه مكان، ولا يُرى بالعين، فإنّه: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3]. بل المراد به اللقاء المعنويّ؛ بمعنى حضوره -تعالى- الدائم في حياة الإنسان، وعدم الغفلة عنه أبدًا، والتوجّه إليه باستمرار، ومشاهدة آياته وآثار قدرته -تعالى- في كلّ شيءٍ. والوصول إلى هذه المنزلة الإنسانيّة الرّفيعة، من لقاء الحقّ والحضور في محضره؛ إنّما يصبح ميسورًا عندما يصبح الله -تعالى- حاضرًا دائمًا في حياة الإنسان، فيرى الإنسان خالقه حاضرًا وموجودًا في جميع شؤون حياته، ويشاهد نفسه دائمًا في مشهد الله العظيم. «وبالجملة إذا رأى السّالك نفسه بجميع شؤونه عين الحضور يستر جميع عوراته الظاهريّة والباطنيّة؛ لأجل حفظ المحضر وأدب الحضور؛ لأنّه وجد أنّ كشف العورات الباطنيّة في محضر الحقّ أقبح وأفضح من كشف العورات الظاهريّة بمقتضى الحديث «**إنّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولكنْ ينظر إلى قلوبكم**»[4]. والعورات الباطنيّة هي ذمائم أخلاقيّة وخبائث العادات والأحوال الخلقيّة الرّديئة التي تسقط الإنسان عن لياقة المحضر وأدب الحضور. وهذه هي المرتبة الأولى من هتك الستور وكشف العورات»[5].

(1) سورة العلق، الآية 8.
(2) سورة الفجر، الآيات 27 - 30.
(3) سورة الأنعام، الآية 103.
(4) المجلسي، بحار الأنوار، م. س، ج67، ص248.
(5) الخميني روح الله: الآداب المعنوية للصلاة، ترجمة: أحمد الفهري، ط2، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 1986م، ص 177.

فالإنسان إذا أراد أنْ يحصل على مقعد صدقٍ عند الله، ينبغي له في البداية أنْ يرى الله حاضرًا وناظرًا إليه في جميع شؤونه، ثمّ بعد ذلك يؤدّي على أساس هذا الشهود جميع الأعمال خالصةً لوجه الله. فممّا أوصى به رسول الله ﷺ أبا ذر رضوان الله عليه أنْ قال له: «**يا أبا ذرّ إنك منّا أهل البيت، وإنّي موصيك بوصيّة فاحفظها، فإنّها جامعة لطرقِ الخير وسبلِه، فإنّك إنْ حفظتها كان لك بها كفلان، يا أبا ذرّ اعبد الله كأنّك تراه، فإنْ كنت لا تراه فإنّه يراك، واعلم أنّ أوّل عبادة الله المعرِفة به**»[1].

وهذه الحالة تحصل للإنسان في هذه الدنيا نتيجة الطّهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس. وقد سأل رجلٌ يقال له ذعلب أمير المؤمنين عليه السلام: «هل رأيت ربك؟ قال عليه السلام: **ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد ربّاً لم أره**. فقال: يا أمير المؤمنين: كيف رأيته؟ قال عليه السلام: «**ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكنْ رأته القلوب بحقائقِ الإيمان**»[2].

يقول الإمام قدس سره في حقيقة اللقاء وكيفيّة حصوله: «ولا بد أن تعرف بأنّه ليس مقصود من أجاز فتح الطريق على لقاء الله ومشاهدة جمال الحقّ وجلاله، جواز اكتناه - التعرّف إلى الحقيقة والذات - ذاته المقدّس، أو إمكان الإحاطة في العلم الحضوريّ والمشاهدة العينيّة الروحانيّة، على ذاته، المحيط بكلّ شيء على الإطلاق، فإنّ امتناع الاكتناه لذاته المقدّس بالفكر في العلم الكلّي- الفلسفة - وامتناع الإحاطة بالبصيرة في العرفان، من الأمور البرهانيّة، ومتّفق عليه لدى جميع العقلاء، وأرباب القلوب والمعارف. بل المقصود لدى من يدّعي مقام لقاء الله هو: أنّه بعد حصول التقوى التامّة والكاملة، وانصراف القلب نهائيًّا عن جميع العوالم، ورفض التوجّه نحو النشأتين ـ المُلك والملكوت ـ ووطء الأنانية والإنيّة، والإقبال الكلّيّ نحو الحقّ المتعالي، وأسماء ذاته المقدّس وصفاته، والانصهار في

(1) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج 74، ص 76.
(2) الكليني، الكافي،م.س، ج 1، ص 138.

عشق ذاته المقدس وحبّه، وتحمّل جهد ترويض القلب، يحصل صفاء في القلب لدى السالك يبعث على تجلّي أسمائه وصفاته، وتمزّق الحجب الغليظة التي أسدلت بين العبد من جهة والأسماء والصفات، من جهة أخرى، والفناء في الأسماء والصفات، والتعلّق بعزّ قدسه وجلاله والتدلّي التامّ بذاته. وفي هذا الحال لا يوجد حاجز بين روح السالك المقدّسة والحقّ المتعالي سوى حجاب الأسماء والصفات. ويمكن أنْ يرفع الستار النوريّ للأسماء والصفات لبعض أرباب السلوك أيضًا، وينال التجلّيات الذاتيّة الغيبيّة، ويرى نفسه متدليًا ومتعلقًّا بالذات المقدّس، ويشهد الإحاطة القيّوميّة للحقّ والفناء الذاتيّ لنفسه، ويرى بالعيان أنّ وجوده ووجود كافّة الكائنات، ظلٌّ للحقّ المتعالي»[1].

ثامناً: العبوديّة والفطرة الإنسانيّة:

عندما يرجع الإنسان إلى أعماق نفسه سوف يجد فيها ميلًا ورغبًة للخضوع أمام كلّ عظيم. فعندما يجلس الإنسان في محضر عظيم من العظماء سوف يشعر بالانجذاب نحوه والخضوع له. وكلّما كان تعلّق قلبه بهذا الشخص أكثر، فإنّ خضوعه له سيكون أشدّ وأقوى، بحيث يصبح مستعدًا لتنفيذ كلّ ما يطلبه منه. وهذه الحالة ليست غريبةً عن الإنسان، بل هي نابعةٌ من أصل خلقته التي فطرت على الخضوع أمام كلّ عظيم.

ولو أعاد الإنسان النظر ورجع إلى أعماق ذاته من جديد سوف يكتشف حقيقةً أخرى جليّة؛ مفادها: أنّه مخلوقٌ ضعيف ومحتاج على الدوام: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2]، ﴿وَاللَّه الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾[3]، فالاحتياج والضعف يخالطانه؛ كما يخالط الدم لحمه، بل أشدّ من ذلك.. وهذا هو السبب الجوهريّ والأساس لحالة الانجذاب والخضوع

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص504.
(2) سورة فاطر، الآية 15.
(3) سورة محمد، الآية38.

التي تحدّثنا عنها آنفاً. فالإنسان عندما يعاين عجزه وضعفه سوف يلجأ لا محالة إلى موجودٍ أكمل منه وأقوى وأغنى؛ لكي يرفع عنه هذا النقص والاحتياج الذي يتخبّط فيه. هذا التوجّه نحو الموجود الأكمل والأقوى يترجم عمليًّا بما يسمّى بالعبادة والخضوع. والفطرة الإنسانيّة لا تطلب الخضوع عبثًا؛ وإنّما لأنّها تجد فيه سبيلًا للكمال والسعادة المفقودين.

فالناس في هذه الحياة الدنيا صنفان:

صنفٌ يرى كماله وسعادته في الدنيا وملذّاتها، فيتوجّه إليها ويطلبها علّه يجد فيها ريًّا لعطشه. وهذا الطلب قد يقوى ويشتدّ عند بعض الناس حتّى يصل إلى درجة العبادة، بحيث يصبح الإنسان عابدًا للدنيا والأهواء المتفرّعة عنها. وهذا ما كشف القرآن الكريم النقاب عنه، حيث قال عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وصنفٌ آخر من الناس أدركوا الكمال الحقيقي وشخّصوه جيّدًا، وعرفوا أنّ مطلوبهم الواقعيّ ليس الكمالات المحدودة والزائلة، بل ما يبحثون عنه واقعًا وما تعشقه فطرتهم هو الكمال اللامتناهي الذي لا نقص فيه، ولا اضمحلال، ولا زوال؛ وهو الله تبارك وتعالى. فتوجّهوا إليه بقلوبٍ منكسرة، خاضعة، مستبشرة، واعبدوه لأنّه أهلٌ للعبادة، ولأنّه مالكُ كلّ شيء، وهو على كل شيءٍ قدير: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. وهذا أمرٌ طبيعيّ وفطريّ؛ لأنّ الإنسان إذا أحبّ موجودًا ما، فإنّ أفضل وسيلة للتعبير عن هذا الحبّ هو الخضوع أمامه وطاعته؛ في ما يأمر به. فكيف إذا كان قلب الإنسان متوجّهًا إلى الله ومتعلّقاً به ومنجذبًا نحوه؟! أمام هذه الحقيقة الجليّة يرتفع النداء الإلهيّ ليكشف النقاب عن سرّ وجود الإنسان في هذا العالم والهدف الأساس من وجوده، فيقول عزّ وجلّ:

(1) سورة الجاثية، الآية 23.
(2) سورة الملك، الآية 1.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وفي آيةٍ أخرى يقول: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[2]. ولو عاد الإنسان إلى نفسه مجدّدًا فسيجد أنّ الطاعة ليست بالأمر الغريب والطارئ عليه، بل إنّ فطرته الإنسانيّة وجبلّته الأصليّة قد جبلت على الطاعة والعبادة. إذًا، فالعبوديّة أمرٌ فطريّ في الإنسان، وعليه يصبح الطريق إلى الله -عزّ وجلّ- جليًّا وواضحًا لا غبار عليه.

إنّ النّفس الإنسانيّة في حقيقتها مجبولةٌ على الطاعة والخضوع أمام كل عظيمٍ وكامل، أمام كلّ من يؤمّن لها سعادتها وراحتها وكمالها. وهذه الحقيقة وصمةٌ على جبين الإنسانيّة لا مفرّ منها أبدًا. فالإنسان لا محالة عابدٌ ومطيعٌ، والسبب في ذلك فقره وضعفه ونقصه. ولكنّ هذا الإنسان إمّا أنْ يكون عابدًا ومطيعًا لموجودٍ فقيرٍ ومحتاجٍ مثله، وإما أنْ يكون خاضعًا لموجودٍ كامل لا نقص فيه أبدًا. وما يرجوه الإنسان من خضوعه وعبادته دومًا هو نيله السعادة التي يتوق إليها ويبحث عنها في الليل والنهار، وهي السعادة الخالدة والدائمة التي لا نقص فيها ولا عوج، لا السعادة المحدودة الزائلة والفانية.

وهذه السعادة؛ بطبيعة، الحال لنْ تكون عند مخلوقٍ ضعيف مثله؛ لأنّه لا يمتلكها أيضًا، ففاقد الشيء لا يعطيه. وهو لو توجّه إلى موجودٍ ضعيف ومحتاج مثله، فإنّه لن يزيده إلَّا فقرًا ونقصًا؛ لأنّ الآخرين مثله محتاجون أيضًا إلى مَنْ يعطيهم السعادة والكمال؛ ولو أظهروا لنا خلاف ذلك. يقول الإمام قدس سره حول حقيقة الفقر الوجوديّ للممكنات: «اعلم أنّ العالم؛ سواء كان أزليًّا وأبديًّا أم لا، وسواء كانت سلاسل الموجودات غير متناهية أم لا، فإنّها جميعًا محتاجة؛ لأنّ الوجود ليس ذاتيًّا لها. ولو تفكّرت وأحطت عقليًّا بجميع السلاسل غير المتناهية؛ فإنّك ستدرك الفقر الذاتيّ والاحتياج في

(1) سورة الذاريات، الآية 56.
(2) سورة هود، الآية 123.

وجودها وكمالها إلى الوجود الموجود بذاته، والذي تمثّل الكمالات عين ذاته. ولو تمكنت من مخاطبة سلاسل الموجودات المحتاجة بذاتها خطاباً عقليًّا وسألتها: أيتها الموجودات الفقيرة من يستطيع، تأمين احتياجاتكم؟ فإنّها ستردّ جميعًا بلسان الفطرة: إنّنا محتاجون إلى مَنْ ليس محتاجًا مثلنا إلى الوجود، وكمال الوجود. وهذه الفطرة أيضًا ليست من ذاتها، ففطرة التوحيد: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ من الله، والمخلوقات الفقيرة بذاتها لنْ تتبدّل إلى غنيّة بذاتها، فمثل هذا التبديل غير ممكن الوقوع، ولأنّها فقيرةٌ بذاتها ومحتاجة فلنْ يستطيع سوى الغني بذاته أنْ يرفع فقرها واحتياجها.

كما أنّ هذا الفقر الذي هو لازمٌ ذاتيّ لها هو صفة دائمة أيضًا؛ سواء أكانت هذه السلسلة أبديّة أم لا، أزليّة أم لا، وليس سواه -تعالى- مَنْ يستطيع حلّ مشاكلها وتأمين احتياجاتها. كذلك فإنّ أيّ كمالٍ أو جمالٍ ينطوي عليه أيّ موجودٍ ليس منه ذاتًا، إنّما هو مظهرٌ لكمال الله -تعالى- وجماله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾. حقيقةٌ تصدق على كل شيءٍ وكل فعلٍ وكلّ قولٍ. وإنّ كلّ مَنْ يدرك هذه الحقيقة ويتذوّقها لنْ يتعلّق قلبه بغير الله تعالى، ولنْ يرجو غيره تعالى»[1].

تاسعاً: العبودية أمر لا مفرّ منه:

إذًا، بحسب رؤية الإمام الخميني قدس سره لا مفرّ من العبوديّة والطاعة، ولكنّ الإنسان إمّا أنْ يكون عبدًا لله -تعالى-، وإمّا عبدًا للدنيا والأهواء. والإنسان إذا أراد أنْ يدرك ما عند الله -تعالى- الذي هو أصل كلّ غنىً وكمال، ومصدر كلّ جمال، ومنبع كلّ سعادة وطمأنينة وراحة في هذا العالم؛ فإنّه لن يحصل على مراده إلّا بعبادته وحده؛ لأنّ العبادة ليست سوى التعبير العمليّ عن التوجّه نحوه عزّ وجلّ؛ كما قال مولى الموحّدين الإمام علي

(1) الخميني، وصايا عرفانيّة، م.س، ص12.

عليه السلام: «**إنّه لا يدرك ما عند الله؛ إلا بطاعته**»[1]. أمّا سعي الإنسان وراء الدنيا وإعمال الجهد في تحصيل ملذّاتها وكمالاتها الموهومة الفانية، فلن تزيد الإنسان سوى عطشًا وحيرةً وضلالة؛ كما عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**مثل الدنيا كمثل ماء البحر؛ كلما شرب منه العطشان ازداد عطشًا حتّى يقتله**»[2]. والسبب في ذلك أنّ الدنيّا الفانية والنّاقصة لا يمكن أن تكون بحالٍ من الأحوال غاية الأرواح الباحثة عن الخلود والسعادة التي لا حدّ لها ولا منتهى. لذا أمر الله -تعالى- الإنسان بطاعته، وأنْ لا يشرك بطاعته أحدًا؛ لأنّ الطاعة هي الترجمة العمليّة للخضوع والحبّ، وحبّ الله لا يمكن أن يجتمع معه حبٌّ آخر؛ كما قال -تعالى- في كتابه العزيز: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[3] فطاعة الله ومحبّته لا تجتمع مع طاعة غيره: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾[4]. وقال عزّ من قائل: ﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5]. وحذّر من طاعة غيره، حيث قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[6].

إذًا، التحقّق بالكمال الإنسانيّ اللامتناهي لا يتمّ إلّا بالارتباط الحقيقيّ والعميق بالحقّ جلّ وعلا. ونحن لو أردنا أن نعطي مرادفًا آخرَ للارتباط الفعليّ والعمليّ بالله عزّ وجلّ، فلن نجد أفضل من كلمة العبوديّة. فمن المتعذّر على الإنسان الباحث عن السعادة والكمال الإنسانيّ المنشود أن يجد مطلوبه عند غير الله تعالى. والله -سبحانه وتعالى- اختصر وجود الإنسان في هذه الدنيا بكلمة واحدة؛ هي: العبادة. فالطريق الوحيد إلى الغاية الحقيقية هو الانقياد التامّ لله سبحانه والذي يظهر بصورة اتّباع رسله وتطبيق شريعته. فالعبودية الحقّة لا تتحقق إلّا من خلال الانقياد

(1) الحر العاملي، محمد بن حسن: وسائل الشيعة، ط1، قم، مؤسسة آل البيت، 1409هـ، ج15، ص234.
(2) الكليني، الكافي، م.س، ج2، ص136.
(3) سورة الأحزاب، الآية 4.
(4) سورة النساء، الآية 36.
(5) سورة البقرة، الآية21.
(6) سورة الأنعام، الآية 121.

التامّ لله وترك التّمرد والعناد. وقد اعتبر الإمام الخميني قدس سره العبوديّة طريقًا وممرًّا ضروريًّا وحتميًّا للوصول إلى الكمال الذي عبّر عنه في أوّل كتابه الآداب المعنويّة للصلاة بـ«عزّ الربوبيّة»، واعتبره من الآداب القلبيّة التي توصل الإنسان إلى أعلى المقامات المعنويّة، حيث يقول: «من الآداب القلبيّة في العبادات والوظائف الباطنيّة لسالك طريق الآخرة: التوجّه إلى عزّ الربوبيّة وذلّ العبودية، وهو بالنسبة للسالك من منازل السلوك المهمّة؛ بحيث تكون قوّة سلوك أيّ إنسان بحسب قوّة هذا التوجّه والنّظر، بل الكمال والنقص في الإنسانيّة يكون تابعًا لنقصانه وكماله...وفي مصباح الشريعة قال الإمام الصادق عليه السلام: «**العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة، فما فقد في العبوديّة وجد في الربوبيّة، وما خفي من الربوبيّة أصيب في العبوديّة**»[1]. فمن سعى بخطوة العبوديّة ووسم ناصيته بسمة ذلّها سيجد سبيل الوصول إلى عزّ الربوبيّة. وطريق الوصول إلى الحقائق الربوبيّة هو السير في مدارج العبوديّة، فما فقد من الإنّيّة والأنانيّة في عبوديّته يجده في ظلّ حمى الربوبيّة، حتّى يصل إلى مقامٍ يكون الحقّ -تعالى- سمعه وبصره ويده ورجله؛ كما ورد في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين»[2]. ففي الحديث القدسي ورد أنّ الله يقول لأهل طاعته: «**يا ابن آدم: أنا غنّي لا أفتقر. أطعني فيما أمرتك أجعلك غنيًّا لا تفتقر. يا ابن آدم: أنا حيّ لا أموت. أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت. يا ابن آدم: أنا أقول للشيء كن فيكون. أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون**»[3].

(1) مصباح الشريعة، المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، ص5.
(2) الخميني، الآداب المعنويّة للصلاة، م.س، ص 31.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج90، ص376.

عاشرًا: الشريعة طريق العبوديّة الأوحد:

إنّ الطريق إلى العبودية يُسلك بتمرين النفس وترويضها بالعبادة والطاعة. فعلى أثر دوام الطاعة، يصبح الانقياد العمليّ ملكةً راسخة في النفس. ومن خلال المواظبة على الصالحات يصبح الباطن صالحًا، ومن خلال التصبّر والاصطِبَار نصل إلى خُلق الصبر. وهذا هو أحد أهداف تكرار العبادات في الإسلام.

إنّ مفهوم العبوديّة وجميع لوازمها؛ من التسليم، والانقياد، والطاعة، وترك الأنا، والفناء، والذوبان، والانتظار، وغيرها؛ هي من المفاهيم الوجدانيّة التي يدركها من تصوّرها وعرفها. فإنّ الخضوع والالتزام وترك الاعتراض مطلقًا من معاني العبوديّة. والعبد الحقيقيّ هو الذي لا يملك شيئًا أمام سيّده ومولاه؛ لأنّ سيّده هو الذي يملكه ويملك جميع شؤونه. ولا يعترض عليه في ما يفعله به، ويلتزم بكلّ ما يأمره.

إنّ العبودية مقامٌ للنفس وحالة للباطن والقلب، وهي تتجلّى في أعمال الإنسان وظاهره. والعبد هو الذي يلاحظ إرادة سيّده، فيتبعها دون حرج في نفسه، ويجعل إرادته تابعة لها مطلقًا. ولكي يتحقّق السالك بهذا المقام عليه أن يمارس هذه التبعيّة في باطنه وظاهره حتّى تصبح ملكةً راسخة لنفسه، فيكون عبدًا لله تعالى بالحقيقة. فإذا أراد سلوك طريق العبوديّة عليه أن يسقط من نواياه ودوافعه ومن غايات أعماله وعباداته كلّ ما عدا الله، فلا يصدر عنه عملٌ أو فعل أو تفكّر إلّا لله وحده. وهذا هو الإخلاص: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[1]. والطريق الأوحد لتحقّق العبوديّة؛ كما يقول الإمام الخميني قدس سره هو في اتّباع الشريعة التي تتضمّن أوامر الله -تعالى- ونواهيه في كلّ شأنٍ من شؤون هذه الحياة، ما ظهر منها وما بطن. وإنّ المبدأ الأساس الذي قامت عليه هذه الشريعة هو مصلحة الإنسان وسعادته. فكلّ ما جاء فيها إنّما كان

(1) سورة الأحزاب، الآية 36.

لمصلحة الإنسان وسعادته. وهي الدستور والقانون الذي ينبغي أن يطاع الله به. فإذا أراد الإنسان أنْ يكون عبدًا لله حقًّا، ما عليه إلَّا أنْ يجتهد في اتّباع هذه الشريعة بكل تفاصيلها بعد التعرّف إليها وتعلّم أحكامها، حلالها وحرامها، فيسعى بجدٍّ ونشاطٍ لتطبيق هذه الأحكام حتّى تسري في كلّ تفاصيل حياته، فتصبح أحكام الله -تعالى- هي الحاكمة في مملكة وجود الإنسان، لا الأهواء النفسية الباطلة.

يقول الإمام بهذا الخصوص: «إنّ طيّ أيّ طريق في المعارف الإلهيّة، لا يمكن إلا بالبدء بظاهر الشريعة. وما لم يتأدّب الإنسان بآداب الشريعة الحقّة، لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة. كما لا يمكن أن يتجلّى في قلبه نور المعرفة، وتتكشّف له العلوم الباطنيّة وأسرار الشريعة. وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه، لا بدّ من الاستمرار في التأدّب بالآداب الشرعيّة الظاهريّة أيضًا. ومن -هنا- نعرف بطلان دعوى من يقول: إنّ الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر، أو لا حاجة إلى الآداب الظاهريّة بعد الوصول إلى العلم الباطن. إنّ هذه الدعوى ترجع إلى جهل مَنْ يقول بها، وجهله بمقامات العبادة ودرجات الإنسانيّة»[1].

فطريق الجنّة هو طريق الطاعة والتقوى لله، وهذه الطاعة إنّما تتجلّى من خلال الالتزام بشريعة الله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[2]. أمّا لو استكبر الإنسان وعصى فترك عبادة الله، فإنّ جهنم هي المثوى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]. فالعبد الحقيقيّ هو الذي يرجع إلى الشريعة قبل اتّخاذ أيّ موقف، علمًا منه بأنَّها تمثّل إرادة الله، ومن لا يسلك طريق العبوديّة، فإنّه يسرع إلى اتّخاذ الموقف والقيام بالعمل من نفسه. وهذا هو السبب الأساس في شقاء إنسان الماضي والحاضر.

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص30.
(2) سورة مريم، الآية 63.
(3) سورة غافر، الآية 60.